

مقدمة

خصائص العصر الحديث

١ - تطور عميق

(١) إذا كان المؤرخون يعتبرون فتح الترك للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وما تبعه من انهيار الإمبراطورية البيزنطية وهجرة علماءها إلى إيطاليا ، نقطة التحول من العصر الوسيط إلى العصر الحديث ، فما ذلك إلا لظهور هذه الأحداث وآثارها في جملة الأحداث التي كونت نسيج التطور الجديد . إن التدرج قانون التحول الاجتماعي ؛ تعمل على هذا التحول أسباب لطيفة عملا متصلا ، حتى يجيء يوم وإذا به قد تم وبرز للعيان . وقد بينا في « تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط » أن الانتقال على القديم بدأ بابتداء القرن الرابع عشر ، فما كاد ينصرم ذلك القرن حتى كانت الفلسفة الاسمية قد نضجت في إنجلترا وفرنسا ، وقضت في بعض الأذهان على جهود المدرسين في سبيل إقامة فلسفة تتفق مع الدين ، وحطمت العلم الطبيعي الأرسطوطالي في جامعة باريس ، وظهرت الأمراء في تمردهم على السلطة البابوية . وكانت بين إيطاليا وبيزنطة علاقات ثقافية ترجع إلى القرن الثالث عشر ، إذ كانت إيطاليا منقسمة إلى جمهوريات وكان أمراؤها يستقدمون الأدباء والعلماء من البيزنطيين . وتوثقت هذه العلاقات في القرن التالي من جراء نشاط التجارة بين البلدين ومحاولات التقريب بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية . فنشطت تعلم اليونانية والنقل منها إلى اللاتينية . وتكاثر في إيطاليا عدد الأدباء والعلماء البيزنطيين بعد ضياع ملكهم ، حتى صار الشغف بالأدب القديم عامما في القرن الخامس عشر ، وكان الإيطاليون كأنهم يعودون إلى أدهم السالف ، الأدب اللاتيني الملقح باليونانية . ومن إيطاليا انتشر الأدبان إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وهولندا ، وأسرع انتشارهما بفضل اختراع الطباعة في منتصف القرن . فكانت «هضة» حقيقيا أنها عودة إلى الثقافة القديمة ، وثورة على ما استحدث العصر

الوسيط من أدب وفلسفة وفن وعلم ودين. ، وأسباب الحياة السياسية والاقتصادية .
 (ب) هذه الثقافة القديمة تنضح بالوثنية من كل جانب ، فانتشرت الوثنية في الأفكار والأخلاق . رأى فيها فريق كبير من الغربيين صورة إنسان الفطرة والطبيعة واعتبروا دراسة القدماء كفيلاً وحدها بتكوين الإنسان بمعنى الكلمة ، فسميت هذه النزعة بالإنسانية أى المذهب الإنساني ، وسميت الآداب القديمة بالإنسانيات . وجاءت كشوف كولومبوس وفاسكو دى جاما وماجلان ودريك ، فى أواخر القرن ، بمعلومات كثيرة عن شعوب كانت بمعزل عن المسيحية وكان لها أديان وأخلاق . فظهرت فكرة الدين الطبيعي والأخلاق الطبيعية . وهكذا تكونت فى الغرب المسيحي نظرية جديدة فى الإنسان تقنع بما يسمى بالطبيعة وتستغنى عما فوق الطبيعة ، كأنها تقول لله : نشكرك اللهم على نعمتك ، ولكننا بغير حاجة إليها ! ولنا نرى إلا أن هذه النظرية تعتمد على إحدى وجهين للثقافة القديمة ، وتغفل عن الوجهة الأخرى ؛ فقد كانت المدنية اليونانية والرومانية تقوم على علاقة وثيقة بين المواطنين والآلهة ، وكانت العقول مشغولة بالقدر والغيب ، وبقيت « الأسرار » ناشطة طول عهد الفلسفة ، وتأثر بها أعظم الفلاسفة ، حتى تحسر أفلاطون على أن حياً لم يزل ينزل بماؤد النفس فيقطع الردد والقلق ، وحتى رأى رجال الأفلاطونية الجديدة أن كمال الفلسفة فى كمال الدين والتصوف . ويقال مثل هذا فى جميع الشعوب القديمة : كان الدين أظهر مظاهر حياتهم ، يتناولها فى جميع نواحيها وينظمها أدق تنظيم . وإذن فقد أخطأ الإنسانون إدراك روح اليونان والرومان وغيرهم من الأمم . وخذعهم عن هذه الروح بعض الشعراء الماجنين والفلاسفة الماديين . ولكن هكذا كان ، فنجمت نتائج خطيرة .

(ج) كان من آثار المذهب الإنساني العمل على سلخ الفلسفة عن الدين ، أو بعبارة أدق ، العمل على إقامة الفلسفة خصيصة للدين ، والحملة على الفلسفة المدرسية بالتهكم على لغتها وبحوثها وطريقة استدلالها ؛ بل الحملة على العصر الوسيط بجميع مظاهره ، ورديه بالجهل والغباوة والبربرية . وكان ما هو أخطر من هذا : كان أن تسرب المذهب الإنساني إلى المسيحية نفسها ، وأخذ يعمل على تقويضها من الداخل . فإذ كانت البروتستانتية فى البدء إلا « احتجاجاً على الغفريات » ودعوى إصلاح فى الإدارة الكنسية والعبادة : ثم زعمت أن الدين يقوم على « الفحص

الحره أى الفهم الخاص للكتاب المقدس ، وعلى التجربة الشخصية ، بغير حاجة إلى سلطة تحدد معانى الكتاب ، ثم تناوأت العقائد بالفحص الحرفى فيها كل مذهب ، وبددت علم اللاهوت غير محتفظة إلا بعاطفة دينية عاطلة من كل موضوع . قام لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦) وزقنجل (١٤٨٤-١٥٣١) وكلفان (١٥٠٩-١٥٦٤) يزعمون العقيدة السلفية وينشئون الكنائس المستقلة وقام هنرى الثامن (١٥٠٩-١٥٤٧) يقهر الإنجليز على إنكار الكتلكة ، وقام غيره من الملوك والأمراء يناصرون المبتدعة قضاء لمآربهم الخاصة ، فكان القرن السادس عشر من أشد القرون اضطراباً وفوضى ، انحلت فيه الروابط الدينية والعائلية والاجتماعية ، وعنت الأهواء القومية ، فنشبت الحروب من أجل الدين والسياسة جميعاً ، واستبيح فيها كل محرم بحجة سلامة الأمير أو الدولة .

(د) وكان الأمراء الإيطاليون يطلبون أسباب القوة والترف . فشحجوا الفنون والصناعات ، فاندفع الأهلون إلى الابتكار والإتقان ، وتنافست المدن فى هذا المضمار ، حتى غالت فى الاستثثار بالمخترعات والآلات الجديدة . وكان من استخدام القوى الطبيعية أن زاد فى معرفة أفاعيلها ، وحفز الهمم إلى البحث عن قوانينها ، فخرج العلم الآلى من ازدهار الصناعات ، وتبع علماء وفنانون من الطراز الأول ، ومن المعلوم أن العمل الساذج يسبق النظر ، أو أن الفن يسبق العلم ، ثم يخرج من النظر عمل جديد ، ومن العلم فن جديد أغنى وأكثر إحكاماً . وكان العلم بأرشميدس فى القرن السادس عشر ، ذلك العالم الذى طبق النظر على العمل خير معوان على إقامة ميكانيكا جديدة أرضية وسموية . فازداد سلطان الإنسان على الأرض ، واتسعت السماء أمام ناظره بفضل اختراع التلسكوب ، فأحس من الكبرياء والطموح ما لم يحسه من قبل ، والتقى هذا الإحساس فى نفسه بما أوحى به المذهب الإنسانى فى الأدب والدين ، وبما نفخ فيه النضال السياسى من إحساس قوى بالاستقلال ، ف شعر كأنه رب نفسه ليس فوقه رب .

(هـ) تلك خصائص عصر النهضة ، وهى هى خصائص العصر الحديث إلى أيامنا . نستطيع أن نردها إلى اثنتين : الفردية العنيفة فى الأدب والدين والسياسة والعناية البالغة بالعلم الآلى وتطبيقاته العلمية الرامية إلى توسيع سلطان الإنسان على الطبيعة والزيادة فى رخائه . وسيكون لكل هذا صدى قوى فى الفلسفة : ستستقل

الفلسفة عن الدين ، فنكون هناك فلسفة إلحادية ، وتكون فلسفة تتحدث عن الروحانية والمسيحية ولا تعنى سوى مجرد عاطفة دينية ، وتكون فلسفة تشيد بالعلم الآلى وتحصر مجالها على قدر مجاله ؛ أو تجتمع هذه الوجهات المختلفة فى بعض المذاهب مع تفاوت بينها ؛ وتظل الأجيال إلى الآن حائرة مرردة ، تعتق المذاهب وتخلعها الواحد بعد الآخر ، وتستبدل نظاماً من الحياة بنظام .

٢ - أدوار الفلسفة الحديثة :

هذه المذاهب من الكثرة والتشعب بحيث يتعذر التمهيد لها والإشارة إليها بشيء من الدقة فى مقدمة عامة . فنقتصر هنا على تعريف مجمل بأبواب الكتاب وهى ستة . يدور الباب الأول على عصر النهضة ، أى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وهو عصر جديد ، ولكن فيه شيئاً غير قليل من القديم : فيه أتباع لأفلاطون يستمدون منه أسباب دين طبيعى ؛ وفيه رشديون يذيعون الإلحاد تحت ستار دراسة أرسطو وابن رشد ؛ وفيه علماء يحاولون استكناه أسرار الطبيعة بالسحر والتنجيم ؛ وآخرون يضعون أسس العلم الحديث فى الرياضيات والفلك والطبيعات ؛ وفيه نقاد يشككون فى أصول الأخلاق ومبادئ المعرفة ؛ وفيه فلاسفة تضطرب فى عقولهم جميع هاته الميول ، فيخرجون مذاهب غامضة مختلطة . - ولكن ما إن يجيء القرن السابع عشر ، وهو موضوع الباب الثانى ، حتى تبدأ الثورة ، ويبدو ميل إلى الإنشاء بعد الهدم ، فتزدهر نهضة دينية ، وبخاصة فى فرنسا ، وتظهر أمهات المذاهب الحديثة ، فى مقلمتها مذهب ديكارت الذى يزعم إقامة فلسفة مسيحية ويستمد عناصرها من القديس أوغسطين والقديس أنسلم ودونر سكوت ، ولكنه يبت فيها روحاً مغايرة للدين ؛ ويتفلسف على أثره مالبرانش وبسكال وصينوزا وليبتر ، فيبين كل منهم على وجهة ستكرر فى الأجيال التالية ، بينما يضع هوبس وفرنسيس بيكون ولوك فلسفة واقعية تذكر الميتافيزيقا وتستمدك بالتجربة . - غيركون لهذه الفلسفة الإنجليزى تأثير كبير على القرن الثامن عشر ، موضوع الباب الثالث ، يبلح فيها الإنجليز ، وأشهرهم هيوم ؛ ويصطنعها الفرنسيون ، فيرد كوندياك المعرفة بأسرها إلى الإحساس ، وينقد فولتير وروسو وأضراب لهما كثيرون أصول الدين والاجتماع ويبددون

فلسفة ديكارت ؛ ويجمع كمنظ بين المذهبين الحسى والعقلى فى محاولة قوية لتفسير العلم والوجود تجعل منه فيلسوف ألمانيا الأكبر ، وتسيطر على العقول إلى أيامنا . — وبينما يبدو القرن الثامن عشر عصر تحليل دقيق ونقد عنيف ، إذا بالنصف الأول من القرن التاسع عشر ، موضوع الباب الرابع ، يعمل على التركيب والبناء فى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا على السواء : تظهر فى ألمانيا فلسفات ضخمة صاحبة تحمل أسماء فخى وشلنج وهجل وشوبنهور ، ويتعمق الفرنسيون فى دراسة الحياة النفسية وشرائطها بحيث يترتب على هذه اندراسة حلول فى سائر النواحي ، كما فعل مين دى بيران ، أو يستوعب أوجست كونت جميع النواحي فى مذهب واحد يصدر عن الواقعية ؛ ويحاول نفر من الإنجليز ، أبرزهم هاملتون تصحيح المذهب الحسى بالفلسفة الألمانية . — ثم ينقلب الحال فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، موضوع الباب الخامس ، فينشأ صراع بين المادية وقد وجدت أسلحة جديدة فى نظرية تطور الأحياء ، وأنصاراً عديدين فى ألمانيا وإنجلترا ، أشهرهم دروين وسبنسر ، وبين الروحية يؤيدها فلاسفة فرنسيون . — ويستمر هذا الصراع فى النصف الأول من القرن العشرين . موضوع الباب السادس والأخير ، ويمكن القول أنه لن ينتهى . ولكن الروحية العصرية عرجاء ناقصة ، فإن الفلسفة الحديثة فى جملتها لا تؤمن بالعقل ومعانيه ومبادئه ، ولا تؤمن بجواهر ثابتة حتى تقول بنفس خالدة وإله شخصى مفارق للطبيعة . فالروحانية مفتقرة فى الواقع إلى فلسفة وجودية موضوعية كفلسفة أرسطو ، ولا ندرى ما إذا كانت العقول العصرية تأخذ أنفسها بمثل هذه الفلسفة ، أو تمضى فى محاولاتها العقيمة .